دراسات في الآداب الأجنبية

سيمون ده بوفوار

بقلم الكاتب الانكليزي موريس كرانستون — ترجمة أدكار مرقص المحامي

ان سيمون ده بوفوار مثل الاديبة الانكليزية جورج اليوت ، فيلسوفة وروائية معا. ولكن خلافا لجورج اليوت التي كانت تبشر بالمادية العلمية، كفيلسوفة ، وبالخلقية الجامدة كروائية ، فان سميون ده بوفوار تتمسك بموقف واحد : فرواياتها ومقالاتها ، على تنوع طرائقها ، تعبر عن وجهة نظر واحدة فى الحياة . واذا اعتبرت جورج اليوت افضل من سيمون ده بوفوار فى مجال للرواية ، فان هذه الاخيرة افضل من الاولى فى مجال الفلسفة . ان سيمون ده بوفوار هي من اهم واضعي ما يسمى « الرواية ذات الفكرة » Roman à thèse

ولدت سيمون ده بوفوار سنة ١٩٠٨ ، وتلقت الدراسة فى السوربون . وبعد تخرجها امتهنت تدريس الفلسفة مدة اثنتي عشرة سنة ، الى ان غدت ، فى سنة ١٩٤٣ ، كاتبة محترفة . ومنذ ذلك الحين ارتبطت ارتباطا وثيقا بجان بول سارتر وبمجلته « الازمنة الحديثة » Les Temps Modernes ولكن اذا توخينا الدقة قلنا انها ليست « تلميذة » سارتر ، كما يحلو للبعض ان يسميها ، لان آراءها حول كثير من الموضوعات الاساسية المهمة تختلف عن آراء سارتر وتبدو اكثر اصالة منها . ولكنها مع ذلك وجودية .

ان محور المشكلة فى فلسفة ده بوفوار هو الحرية . فهي تعتقد بان الحرية امر ذو وجود حقيقي وذو قيمة ايضا ، وان الانسان حر ، ولكنه مع ذلك يجب ان يناضل ليكون حرا. وهذا الاعتقاد ينطوي على تناقض ظاهر . وسيمون ده بوفوار على علم بهذا التناقض ، ولعلها ان تكون فخورة به بعض الشيء ، فان التناقض يحتل مكانا مشرفا فى فلسفة القارة الاوروبية . واظن ان ما تعنيه الكاتبة ، فى عبارات مبسطة ، هو ما يأتي : ان كل فرد حرّ لان ارادته حرة ، وما الحتمية الا زيف وبطلان ، ولكن هذا الفرد خاضع مع ذلك لكثير من عوامل الضغط الباطنية والخارجية ، فليس يسعه ان ينال حريته الا ببذل جهد ايجابي. وهذا الجهد، كماتعتقد سيمون‌ده‌بوفوار،خليق ببذله ، لان الحرية هي فى مقدمة القيم منزلة واهمية .

ان سيمون ده بوفوار ، شأنها شأن العديد من الفلاسفة، تعتبر حرية الارادة ظرفا ضروريا لقيام الاخلاق . وانا لست على يقين من صحة هذا الرأي ، ولكن دحضه امر عسير . فاذا كانت الارادة غير حرة ، فلن يلام احد على ما يقترف من عمل ، لان المعتدي فى مقدوره ان يدافع عن نفسه دائما بقوله : « لم يكن فى وسعي ان اتجنب الامر » فبدون الارادة الحرة لا يمكن ان تقوم مسؤولية خلقية . وسيمون ده بوفوار هذه مندفعة فى ايمانها بالمسؤولية الخلقية ، فنراها تقول فى بداية روايتها (دم الآخرين) : «ان كلا مسؤول عن كل شيء امام الجميع » tout devant tous Chacun est responsable de وهذه الكلمات يصح اتخاذها شعارا لجميع مؤلفاتها .

على ان سيمون ده بوفوار لا تكتفي باعتبار الجبر زيفا ، بل هي تستنكره كل الاستنكار لانه ، فى اعتقادها ، يفضي الى موقف الاستسلام السلبي تجاه الشر . ومن المحقق ان كثيرا من الفلاسفة ، وبالاخص الفلاسفة الانكليز ، قد سلموا بواقع الحتمية دون ان يفضي بهم ذلك الى الاقلاع عن ادانة المسيئين . ولكن المؤمن بالحتمية ايمانا صارما ، شأن موباسان ، يجب ان يمتنع عن لوم من يقترف منكرا . وسيمون ده بوفوار لا يعجبها موباسان ، وانما تفضل المركيز ساد . وقد عمدت فعلا الى كتابة سلسلة من المقالات بعنوان « هل يجب احراق ساد » Faut-il Bruler Sade ? ضمنتها مدحا لهذا الكاتب العاهر النشيط ، لا لسبب غير اندفاعه فى شوق وحماس الى ايجاد « تبرير » Justification

---

وان الرغبة فى الوحدة ، التي عرف الشاعر احيانا كيف يجنبنا التفكير فيها ، تظل عماد هذه القصائد القليلة المفضية الى روح التشاؤم المرة ..

وهذا الديوان ليس الجواب الاخلاقي لسؤالنا ، بقدر ما هو السؤال الاكثر وحشة عن مصيرنا ...

ولن يعجز الشاعر الذي استطاع بهذا القدر من المهارة ان يغوص فى قلوبنا ، عن اكتشاف الجواب الاخلاقي فى اشعار مقبلة ...

فما زال القيد الثقافي يؤطر عالمه ، وفى اللحظة التي يصبح فيها بمنجى عن التأثر بما يتذوقه من ركائز الثقافة سيعرف كيف ينتشل صميميتنا من هذا البحران المتعس الذي يدوخنا .

ولا بد ان يكون جوابه فى المرة القادمة اكثر اتصالا بوعيه الذاتي وبأخلاقية الشرقي الذي يمر الان فى فترة شبابه ..

ونحن ... شبيبة هذا الجيل الممزق ، لا نجد ممثلا اقرب الينا فى بحثنا الابدي ، من صلاح الذي هو منا ، قبل ان يكون نفسه ...

**

قصائد الديوان ..؟!؟

لم امسسها بحرف ، فى حين تجرعتها حتى الثمالة ..

فلا يجب ان ننسى ان الشاعر ليس ابدا ، نزوة قصيدة واحدة ... وبعد آلاف القصائد ، يظل الشاعر بعيدا عن ان يكون قد قال ما يريد للقاريء ، بعد اول قصيدة كتبها عن تمثيله هو .. بيد ان هذه النضارة هي دنيا الشاعر والجمهور معا ...

القاهرة — محي الدين محمد

خلقي لكل ما عمل وما كتب ، على الرغم من أنه كان يؤمن بشكل بسيط من اشكال المذهب الجبري ، خليق بان يجعل التبرير عديم المعنى. والظاهر ان سيمون ده بوفوار تفضل الاخلاقي الذي يعوزه المنطق على الساخر المتعلق باهداب المنطق!

ولكن هذا لا يعني ان سيمون ده بوفوار لا تخالجها المخاوف حول حرية الارادة . فهي تدرك ان الجبر ادعى الى راحة البال ، اذ ان المؤمن بالجبر الذي لا يجد مبررا للوم الآخرين ، لن يلوم نفسه ايضا . اما من آمن بحرية الارادة فقد وجب عليه ان يسلم بمسؤوليته الشخصية وبذنبه الخاص ـ وليس فى هذا التسليم ما يسره ، فقد يفضى به الى « القلق » كما قد يفضى فى حالات معينة الى الرغبة فى معاقبة النفس او الماسوشية. ان سيمون ده بوفوار بادراكها على هذا الوجه للجانب المظلم من مبدأ حرية الارادة، تبرز بوصفها وجودية مثالية. ولكن مايميزها عن سائر الوجوديين انها تجد فى حرية الارادة سببا يدعو الى الابتهاج اكثر مما يدعو الى القنوط . فهي ترى ان الارادة اذا كانت حرة، فان المستقبل يكون « مفتوحا » ، ويغدو فى مكنة الناس ان يفصموا قيود عبوديتهم للماضي ، اذ ان هذه القيود وان بدت قوية الا انها قابلة للانفصام .

تقول سيمون ده بوفوار فى بحثها المعنون الوجودية وحكمة الامم Nations L'Existentialisme et la Sagesse des

« ان الناس يحبون ان يعتقدوا بان الفضيلة سهلة التحقيق ، ولكن الامر ينتهي بهم الى الاستسلام ، فى غير صعوبة ، للاعتقاد بان تحقيقها محال . ان ما يكرهون ان يدركوه هو ان تحقيق الفضيلة ممكن ولكنه صعب . »

هل يعنى هذا ان سيمون ده بوفوار تعمد الى « الوعظ »؟ نعم ، الى حد ما . ان امكانياتها كفيلسوفة محللة تظهر فى غزارة فى مقالها « من اجل اخلاق للالتباس » Pour une Morale de l'Ambiguité ولكن خلافا لخيرة الكتاب الانكليز المحدثين الذين يعالجون علم الاخلاق، امثال «هار» R.M.Hare او C.D.Broad فان سيمون ده بوفوار لا تقف عند حد التحليل ، بل ترغب فى ان يكون لما تكتب تأثير فى السلوك . ان فلسفتها ، كما تبينها هي، « تتطلب من الانسان توترا مطردا » reclame de l'homme une tension constante

وفى مقالها(١) Littérature et Métaphysique توضح ان رواياتها متممة لكتاباتها النظرية . وهي تقر بان عبارة « الرواية الميتافيزيقية » لا تخلو من اثارة للرعب ، وان من الحماقة ان نتخيل رواية ارسطوطالية او سبينوزية او حتى لبنتزية، لان هذه المذاهب جميعا « تطرد الذاتية والزمانية » . وهي ترى ، من جهة اخرى ، ان الفيلسوف الذي يسلم تسليما تاما بالذاتية والزمانية، ينتهي به الامر الى ان يغدو ، مهما احجم ، فنانا اديبا ، شأن افلاطون وهيغل وكيركغارد : ان شكل الرواية له مركز خاص عند الوجوديين ، لان « الرواية وحدها هي التي تتيح للكاتب ان يستحضر التدفق الاصيل للوجود . » ان سيمون ده بوفوار تدعو الى منح الرواية الميتافيزيقية ما تستحقه من مكانة بجانب الرواية البسيكولوجية ، مدعية ان الرواية الميتافيزيقية تلقى منا ما تلقاه الرواية البسيكولوجية من قبول ، وانه يمكن النظر اليها نظرتنا الى الرواية البسيكولوجية . وهي تقول فى هذا الصدد : « اذا اعدت الرواية البسيكولوجية لتفسير ريبو (٢) او فرويد ، فانها تكون عديمة القيمة . ولكن اذا انصهرت المباديء البسيكولوجية فى وحدة فنية ، نجحت الرواية . ان بروست ، بوصفه تلميذا لريبو ، يثير السأم فى نفوسنا ولا يعلمنا شيئا . ولكن بروست ، الروائي الصادق ، يكشف لنا عن حقائق لم يصل اليها نظريو عصره. وتقول ده بوفوار انها ، فى رواياتها الخاصة ، لا تحاول ان تشرح فى المجال الادبي المباديء التي سبق ان تقررت فى المجال الفلسفي ، وانما هي تحاول ان تعرض تلك النواحي من « التجربة الميتافيزيقية » التي لا يمكن ايصالها الى الناس عن طريق الرواية ـ رؤيا الواقعية « فى جميع ابعادها » ! dans son integrité

ومن بين رواياتها التي حققت هذا الهدف اكثر من غيرها فى رأيي ،رواية « دم الآخرين »

ان الشخصيات الرئيسية فى هذه الرواية تتألف من بلومار ، وهو بورجوازي المولد ، ينضم فى سنة ١٩٣٠ الى الحزب الشيوعي ، ومن هيلين ، وهي شابة تمتهن بيع الحلوى وتتطلع فى شوق ، رغم اصلها المتواضع ، الى المطلق . وهي تقول لبلومار : « حين كنت فتاة صغيرة ، كنت اومن بالله . وكان هذا الايمان شيئا رائعا ، فقد كنت مطالبة بان اقوم بشيء فى كل لحظة . ثم ظهر لي اني انما كنت ملزمة بالوجود ليس الا . ظهر ان وجودي اقتضاء لا بد منه » . ويجيبها بلومار : « اعتقد ان مشكلتك هي انك تتصورين ان اسباب وجودك يجب ان تهبط اليك من السماء جاهزة . والحقيقة هي اننا نحن الذين يجب ان نخلق هذه الاسباب » . ومن سوء الحظ ، تخلق هيلين سببا لحياتها بالوقوع فى حب بلومار . ويعرض عنها بلومار، فتتركه وهي تحس شبقا متزايدا . ولكنها تعود الى مسكنه لاجهاض جنينها (وهذا المشهد مفصل تفصيلا دقيقا على

سيمون ده بوفوار

(١) نشر المقال فى العدد الثاني عشر (السنة الثانية) من مجلة الآداب بعنوان (الادب والميتافيزيقا) .

(٢) ثيودول ارمان ريبو (١٨٣٩ ـ ١٩١٦) عالم بسيكولوجي فرنسي عرف بانكاره خضوع الانسان للعوامل الروحية او اللامادية .

طريقة زولا) . وتنقلب العاطفة فى قلب بلومار الى حب لهيلين ، ولكن الحرب تندلع ، فيرسل الى خط ماجينو . وتتبعه هيلين ولكنها ترغم على العودة . وفى باريس تهيىء له عملا هينا ، ولا تستطيع ان تفهم لماذا لا يرغب فى ترك الجبهة ، فان الحب ، فى ظنها ، يجب ان يعنيهما اكثر من الوطنية . ولكنها تنعزل عنه فى باريس بنتيجة اندحار فرنسا ، فتقبل العيش فى حماية رجل الماني ، ولكن يحدث لها فى احدى الامسيات ان تمر بتجربة تحول . وتدرك شرور النازية وتنضم الى قوى المقاومة . وهناك تتصل ثانية ببلومار ، ولكنها تقتل بعد وقت قصير اثناء قيامها بمهمة من مهمات المقاومة . وتنتهي الرواية بمشهد يمثل بلومار وهو يتأمل جثة هيلين ، ويفكر فى حبه لها قائلا : « لو قمت فقط بتكريس نفسي للدفاع عن ذلك الخير الاسمى ... الحرية ، اذن لما صارت عاطفتي عديمة النفع. انك لم تمنحيني سلاما ، ولكن لماذا اريد السلام ؟ انك قد منحتني الشجاعة لان اتقبل الى الابد المخاطر والقلق وان احمل آثامي وذنوبي التي ستعذبني الى الابد . ليس هناك من سبيل آخر . »

وفى رأيي ان ما هو مهم فى هذه الرواية ليس ما يبدو فيها من ملامح وجودية ظاهرة ، كالتأكيد على الشجاعة ، والقلق والمأثمة ، او تمجيد المقاومة الفرنسية . ان مشكلة معظم هؤلاء الكتاب « السارتريين » انهم لا يجدون ما يمجدونه غير المقاومة الفرنسية ، وان اهتمامهم بالشجاعة والقلق والمأثمة يستحوذ على افكارهم الى حد يدعو الى الضجر . ان موضوع الجدل فى « دم الآخرين » يكمن فى كلمات بلومار لهيلين : « علينا ان نخلق اسباب حياتنا . » انه لمن المألوف لدى الوجوديين ان يصفوا العالم ، او وجودنا فى العالم على اي حال ، بانه عبث ، وهذا اسلوب آخر فى القول بان الحياة عديمة المعنى . ولكن سيمون ده بوفوار تعارض فكرة العبث بفكرة اخرى هي ان وجودنا « غامض »، وهي تعنى بذلك ان وجودنا ليس له معنى واحد مقرر ، بل عدة معان ممكنة . ومعنى الحياة هو اي شيء يستطيع كل واحد منا ان يكتشفه لنفسه او يخلقه لنفسه .

le sens... doit sans cesse se conquérir

فالمسألة ، مرة اخرى ، هي مسألة بذل الجهد . وفى « من اجل اخلاق للالتباس » تقول ده بوفوار ان القيم الخلقية توجد فقط فى النطاق الذي يخلقه الناس ، فليس ثمة اله يقدم وصايا ولا قانون خلقي تكشفه عين العقل . ويترتب على ذلك « انه ينبغي كل مرة ان نخلق من جديد اسلوبا للعمل يحمل تبريره فى ذاته »

On devra chaque fois inventer à neuf un mode d'action qui porte en soi sa justification.

ان هيلين ، فى « دم الآخرين » تتحرق شوقا الى المطلق. وهذا امر شائع بين الابطال الوجوديين ، ولكن سيمون ده بوفوار ترى ما ينكره سارتر (البروتستانتى مولدا) ،وهو ان المطلق انما هو بديل للاله ، وان الحاجات الميتافيزيقية ، من وجهة النظر البسيكولوجية ، هي الحاجات الدينية نفسها . وهذه المسألة تبدو اشد وضوحا فى رواية ده بوفوار الاخرى المسماة «جميع الناس ميتون» **Sont Mortels Tous Les Hommes** حيث نجد البطلة ريجين تتعقب معتوها وتعزيه على اتيان الفحش ، لاعتقادها بانه خالد لا يموت . ان ريجين تملك كل النعم الدنيوية ــ الحب ، والشهرة ، والمال، والجمال ، وما الى ذلك ــ ولكنها تفزع من الموت وتشتاق اشتياقا لا يوصف الى شيء لا يستطيع ان يمنحه اياها غير الايمان وحده . وعلى نقيض هيلين التي تحل مشكلة الحياة بموت نبيل ، فان ريجين ، العالمة بان الموت نعمة تترك لتعيش حياتها ، وهكذا فان خاتمة الرواية كخاتمة قصيدة اليوت « ليست الا البداية » .

n'est que le commencement

وقد يستنتج من بعض كتابات سيمون ده بوفوار ما يحمل على الاعتقاد بانها فى الواقع من فرسان الكنيسة الحرة بحديثها عن الفضيلة والجهد والخلاص . ولكنها ليست فى شيء من ذلك . انها لا شك اخلاقية ، ولكنها من وجهة النظر المسيحية ، وحتى من وجهة النظر الانسانية التقليدية، مرتدة الى اقصى حدود الارتداد . ويمكننا ان نرى مدى ارتدادها بالرجوع الى روايتها « المدعوة » **L'invitée** .

ان « المدعوة » ، كمسرحية « جلسة سرية » **Huis Clos** لسارتر ، قد اتخذت كعقدة لها المثلث المتعارف عليه محوّلا الى دائرة بادخال عنصر الشذوذ الجنسي فيه . نجد فى « المدعوة » فرانسواز وبيير سعيدين فى حبهما ، وقد تجاوزا المرحلة الاولى من شبابهما ولم ينتهيا الى زواج . وبصرف النظر عما يتخلل عشرتهما من بعض الامور التافهة الدالة على عدم الاخلاص، فانهما فى الواقع مكتفيان ببعضهما. ويحدث ان تزورهما فى باريس فتاة شابة من الارياف تدعى كزافيير وكم يدهش القارىء ان يجد فرانسواز وبيير يدعوان كزافيير الى السكنى معهما ، مع انها ، كما يتضح فى نهاية الفصل الاول ، ليست غير عاهرة صغيرة لا تطاق عشرتها . وكلما ساء سلوكها تجاههما ، زاد حبهما لها . وتسقط فرانسواز مريضة وهي تسائل نفسها عما اذا كانت كزافيير تبادلها الحب . وفى دار التمريض تستنبط فى الفتاة تلك الايماءات الدالة على المودة والرقة ، وتستعيد صحتها شيئا فشيئا ، ويعيش الثلاثة لفترة من الزمن عيشة مشتركة تتخللها السعادة ويسودها حب فرانسواز وبيير لكزافيير حبا افلاطونيا ولكنه ظاهر علانية . ويبرز هنا سؤال لا مفر منه : هل تعمد كزافيير الى مضاجعة بيير ؟ كلا ، وانما هي تضاجع بدلا منه صبيا يدعى جيربير . وعندئذ تعمد فرانسواز الى ابعاد هذا الصبي الى الاب لتمهد لبيير سبيل الاتصال بكزافيير . ولكن عملها هذا لا يثمر شيئا ، لان بيير يستدعى للخدمة العسكرية ، وتدرك فرانسواز ان كزافيير قد حطمت الشيء الوحيد الذي يعطى معنى لحياتها ، وهو علاقتها ببيير ، فتعمد الى قتل الفتاة . والعباراة الاخيرة من هذا الكتاب تشير الى القتل الذي اقترفته فرنسواز بالقول : « لم يكن فى وسع احد ان يدينها او يبرئها ، فان عملها لم يكن يختص باحد سواها.

(أنا الذي رغب في هذا العمل) . لقد كانت الارادة التي تحققت ارادتها الخاصة ، ولم يبق بعد ما يفصلها عن نفسها لقد اختارت اخيرا . اختارت نفسها »

على القاريء الا يخطيء الناحية الخلقية في « المدعوة » فان سيمون ده بوفوار لا تهاجم الشذوذ الجنسي ، ولا تشير (كما يفعل بعض الروائيين الانكليز والاميريكيين) الى ان الشذوذ الجنسي يبرر القتل . ان آراء ده بوفوار حول هذا الموضوع واضحة كل الوضوح في كتابها « الجنس اللطيف » Le Deuxième Sexe (وهو دراسة طويلة عميقة حول مكان المرأة في المجتمع) ، حيث تقول : « ان الشذوذ الجنسي ، كأي سلوك انساني ، قد يؤدي الى الخداع واختلال التوازن والمراوغة والكذب ، او قد يكون ، من جهة اخرى ، مصدرا لتجارب غنية ذات نفع ، تبعا لاسلوب التعبير الذي يتخذه في الحياة الواقعية »

ان الفكرة الاخلاقية في « المدعوة » تكمن في الجملة الاخيرة من الكتاب . ان فرانسواز قد اختارت . فالاختيار هو العمل الخلقي . ان فرانسواز بقيامها بما قامت به ، قد كشفت عن نفسها باعتبارها كائنا اخلاقيا . ومن وجهة نظر المباديء الخلقية عند سيمون ده بوفوار ، فان ما يهم في هذه القضية هو ان فرانسواز قد عمدت الى الاختيار ، وليس ثمة معنى للحكم فيما أذا كانت فرانسواز (او اي فرد آخر) قد اصابت او اخطأت ، لانعدام كل مقياس في ما وراء القيم التي يصنعها كل منا لنفسه . وارى لزاما عليّ ان اقول ان هذا يبدو لي نظرية خلقية غير مرضية فان ده بوفوار تقول ان فرانسواز لا تصح ادانتها لانها قد عمدت الى الاختيار . واظن أنه يجوز لكل انسان ان يقول انه لا تصح ادانة فرانسواز لو لم تعمد الى الاختيار ، لو كان الفعل الذي افضى الى مقتل كزافيير فعلا قهريا غير ارادي ، فان الافعال العمدية هي التي نعمد الى ادانتها . ولكن سيمون ده بوفوار تقلب الادراك الفطري العام للاخلاق رأسا على عقب . ولهذا سميت سيمون ده بوفوار كاتبة اخلاقية ، ولكنها مرتدة الى اقصى حدود الارتداد .

على ان انتقاد ده بوفوار بصفتها أخلاقية لا يتطلب بالضرورة مهاجمتها بصفتها روائية ، حتى وان كانت فلسفتها وفنها Wechselbergriffe عن قصد وتصميم . وقد يخالفها المرء في آرائها ، ويكبرها مع ذلك بوصفها فنانة . وفي الواقع ، ان سيمون ده بوفوار لا تخيبنا الا حيث تخفق في صهر فلسفتها في فنها ، اي في الحالات التي تحطم فيها قواعدها الخاصة لنجاح الرواية الميتافيزيقية . وفي رأيي ان ده بوفوار لم تمتص امتصاصا تاما نظريتها عن حرية الارادة ، وانها قد استخدمت الرواية وسيلة لابراز مبدأ الاختيار المقرر سابقا ، على نحو ما فعل زولا وامثاله لابراز مبدأ الجبر المقرر سابقا ايضا . ان الروائيين الطبيعيين اعتقدوا بان الافكار والافعال الانسانية خاضعة كلها للقوانين البسيكولوجية ، ولهذا فقد امكن التنبؤ مقدما بالافكار والافعال التي تصدر عن اشخاص رواياتهم . اما في روايات سيمون ده بوفوار ، فان سلوك الشخصيات البطلة ـ على كل حال ـ لا يمكن التنبؤ به مقدما ، وان القاريء ليأخذه الدهش لكل ما يصدر من فرانسواز او هيلين ، مثلا ، من تفكير جديد او فعل جديد ، وان هذا الدهش يتحول عاجلا او آجلا الى حيرة او شك في صدق الرواية . واني لاذكر ان خير تعليق قرأته بشأن عدم امكانية التنبؤ في الرواية ما كتبته اليزابيت براون(١):

« يمكن القول على وجه العموم ان الفعل الصادر من الشخص في الراوية يجب ان يكون غير قابل للتنبؤ به مقدما قبل وقوعه ، وان يكون امرا حتميا بعد وقوعه . ففي النصف الاول من الرواية يجب ان يكون عدم امكانية التنبؤ هو العنصر الغالب الذي يلفت نظر القاريء ، وفي النصف الثاني من الرواية يجب ان تكون حتمية النتائج هي العنصر الغالب . (اكثر الروايات استثناء لهذه القاعدة تلك التي بلغت الذروة في الكمال ، كالحرب والسلم ، والثقافة العاطفية ، وفي سبيل البحث عن الوقت الضائع ـ فان عنصر عدم امكانية التنبؤ يسود هذه الروايات من بدايتها الى نهايتها) »

وما كنت لاختار «التربية العاطفية» L'Education Sentimentale نموذجا للرواية التي « يسود فيها عنصر عدم امكانية التنبؤ من بدايتها الى نهايتها » . ذلك لان من اهم الفروق بين فلوبير وبروست هو ان شخصيات فلوبير تملك من البداية « بذرة » بسيكولوجية معينة ، تجعل تطور هذه الشخصيات امرا واضحا مفهوما ، بينما نجد بروست لا يكتشف « بذرة » شخصياته ـ اذا اكتشفها ـ الا بعد ان تمر شخصياته بمرحلة التطور(٢) .

ومهما يكن من امر ، فان فكرة اليزابيت براون هي على جانب كبير من الاهمية . وهناك اسباب كثيرة تدفعنا الى القول بصحة فكرتها ، ولكني سأذكر هنا واحدا منها وهو اننا ، كقاعدة عامة ، نعاض عدم امكانية التنبؤ في الرواية ، لان السلوك الانساني الذي يبقى على الدوام غير قابل للتنبؤ مقدما ، يكون غير مفهوم بالقياس الى فكرتنا عن الحياة ، وما يكون غير مفهوم يغدو في النهاية مملا . ولكن استاذا مثل تولستوي يغير فكرتنا عن الحياة خلال قراءتنا له ، ونجد انفسنا عامدين الى تعديل المقاييس التي كنا نقيس بها الاشياء في السابق . ولكن سيمون ده بوفوار، مع الاسف ليست تولستوي ، وان ما هو ميزة الرفعة في رواياته ، هو علة العيب في رواياتها . ومع ذلك ، فانها تبقى تلك الكاتبة الاصيلة التي استطاعت ان تنجح ـ حيث اخفق الكثيرون ـ في جعل الميتافيزيقا صالحة للقراءة .

بغداد — ترجمة ادكار سركيس المحامي

(١) Collected Impressions (Page 252)

(٢) يذكر جاك رفيير شيئا يشبه هذا القول في « دراسات حديثة » Nouvelles Etudes « ان تحليل بروست للشعور الانساني جديد كل الجدة . فقد اعتاد الروائيون الفرنسيون ، قبل بروست ، ان يقيموا رواياتهم من البدء على الشعور الانساني المستمد من فكرة مقررة للوعي، يعودون اليها مرغمين في نهاية كتبهم ... ولكن بروست رفض جميع الموجودات البسيكولوجية وجعل نقطة البدء التجربة المحضة . ومن المؤكد انه كان يجهد في الوصول الى قانون ، والى وضعه في قالب منظم حالما تتبين له معالمه ، ولكنه كان يرغب دائما في هجره ونسيانه كلما لاحظ ظهور قانون آخر مناقض للاول .